من مآسي التاريخ الإسلامي

فرار عبد الرحمن الداخل

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس بين أمراء الدولة الأموية ، سواء في الشام أو الأندلس ، من تقدم إلينا حياته وسيرته تلك الصفحة المدهشة التي يقدمها إلينا عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ؛ فقد كان هذا الأمير بطل مأساة خارقة مؤثرة ؛ ولم تكن روعة هذه الصفحة في أنه أقام من العدم ملكاً عظيماً فقط ، وأقام لمجد أسرته الذاهب ضرحاً شامخاً فحسب، ولكن روعتها تبدو بنوع خاص في معترك المحن الأليمة التي نشأ في غمارها هذا الأمير القوي النابه . وإذا كانت حياته السياسية لا تحمل على كثير من الحب ، وتبدو لنا حياة مغامر يشق طريقه إلى السلطان بوسائل ليست دائماً مشروعة ، فان المحنة التي طبعت بها حياته الخاصة ، وما صقلت هذه المحنة من خلاله الباهرة ، لما يستثير منا أيما عطف وإعجاب

وقد لا نجد لحياة الداخل صورة أبلغ وأقوى من تلك التي رسمها لنا خصمه وعدو أسرته أبو جعفر المنصور العباسي إذ نعته بصقر قريش ، ولخص لنا حياته المدهشة في قوله : « عبر القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ؛ وأمير المؤمنين بطيب عترته واجتماع شيعته ؛ وعبدالرحمن متفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ؛ مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين »

تلك هي حياة عبدالرحمن بن معاوية ، حياة نشأت من العدم ، وسلسلة حافلة بالمحن والصعاب القادحة ، تبدأ في المشرق بفرار عبد الرحمن أمام مطارديه وقتلة أسرته ومنتصبي عرش آبائه وأجداده ، وتنتهي في المغرب وبسائط الأندلس بالظفر والملك الموطد . ولقد كان هذا الفرار أول وأعجب فصل في هذه المأساة ، وكان عنوان القدر المدهش يدبر من الحوادث الواقعة ما لا يخطر تصوره على الذهن المغرق في الخيال

كانت سنة ١٣٢ هـ سنة حاسمة في تاريخ الإسلام والخلافة ، ففيها انهار صرح الدولة الأموية تحت ضربات بني العباس ، وقامت في المشرق خلافة جديدة هي الخلافة العباسية ؛ ورأت العصبة العباسية الظافرة أن تتوج ظفرها بسحق الأسرة التي استولت على تراثها واجتثاث أصولها وفروعها ، فنظمت مطاردتها الشهيرة لبني أمية ، وتتبعتهم بالقتل الذريع في كل مكان ، وقتلت منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم تبق حتى على النساء والأطفال ؛ ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن يفلت بعض فروعها ، وأن يزكو ليستعيد أصله الراسخ في أرض أخرى ؛ فكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك ، اختاره القدر ليحمل مصاير الدولة الأموية إلى وجهة أخرى

هذا الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وإخوته في قرية تعرف بدير يوحنا من أعمال قنسرين ، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً ؛ وكان أبوه معاوية قد توفي شاباً في أيام أبيه هشام ، فكفله وإخوته جدهم هشام ؛ ولما وقعت النكبة وأمعن الظافرون في مطاردة بني أمية فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات وحل هنالك ببعض القرى ، واختفى بها حيناً يدبر أمره ؛ وكان يرقب الموت في كل لحظة ، ولكنه كان في الوقت نفسه يتجه بذهنه إلى مستقبل بعيد غامض . وبينا هو في هذا الجزع القاتل يدبر أمره ، إذا بجند السودة تطوق القرية ، وتستقصي آثار بني أمية ؛ وإذا بعبد الرحمن يرى شبح الموت أمامه فجأة ، فيحاول اجتنابه بالفرار من مطارديه

وقد انتهت إلينا عن هذا الفرار قصة مؤثرة نقلها إلينا مؤرخ أندلسي مجهول عن لسان عبد الرحمن ذاته [1] ، ونقلها

(١) وردت هذه الرواية في كتاب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ص ٥١ — ٥٣

عنه بعد ذلك أبو حيان مؤرخ الأندلس[1] وخلاصتها أن عبد الرحمن حينما علم أن القرية قد غصت بجند المسودة ، بادر إلى شيء من المال فحمله ، وفر مع أخيه الأصغر ، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ، وقصدا إلى شاطىء النهر (الفرات) فدل عليه بعض الخونة فما شعر إلا والخيل في أثره ، فألقى بنفسه في النهر مع أخيه وأخذا يقطعانه سباحة ، واستطاع عبد الرحمن أن يصل إلى الضفة الأخرى ؛ ولكن الغلام عجز عن قطعه ، وآثر أن يعود إلى الضفة الأولى بعد أن وعده الجند المطاردون بالأمان ؛ ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه وقلبه يتفطر روعة وأسى .

ولما أمن عبد الرحمن خطر مطارديه سار مختفياً إلى الجنوب وقطع فلسطين ثم مصر ، وهو يحمل حياته في كفه متأهباً للقاء الموت في كل لحظة . وكانت عيون العباسيين ترقبه وتشيعه خلال هذه الهضبات والفيافي الشاسعة ، وتكاد تكشفه من آونة إلى أخرى ؛ ولكن طالعه كان يهديه ، فجاز مصر إلى برقة ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى أخواله بني نفزة ، وهم بطن من بربر طرابلس وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم يركب الفرص ، وأنفذت إليه أخته أم الاصبغ مواليه بدراً وبسالداً ومعهما شيء من المال والجوهر . والظاهر أن عبد الرحمن كان يتجه منذ الساعة الأولى ببصره إلى افريقية ، وأن نفسه كانت تحدثه بما قد يكون له في الأندلس من شأن . فلما هدأ روعه استأنف سيره ، ونفذ إلى افريقية يحاول اختراقها ؛ وكان المتغلب عليها يومئذ عبد الرحمن ابن حبيب الفهري ، وكان وقت أن دالت دولة بني أمية في المشرق قد دعا لبني العباس ، وكان يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر وصادر أموالهم . ولما شعر بظهور عبد الرحمن بن معاوية حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن ينجو مع صحبه إلى المغرب الأقصى

وهنا تتفتح آمال عبد الرحمن وأطماعه ؛ فعلى مقربة منه في الضفة الأخرى من البحر بلد غني زاهر من تراث الدولة الأموية الذاهبة لم تمتد إليه يد المسودة ، ولم تقتحمه دعوتهم ، وفيه عصبة قوية من بني أمية وأنصارهم ومواليهم ، وفيه يستطيع — إذا حالفه حسن الطالع — أن يعيد بناء الصرح الذي انهار في المشرق ، ويستأنف لأسرته حياة جديدة في السلطان والملك . وكانت الأندلس في الواقع ، منذ انجلت عنها يد السلطة المركزية ، مهبط الطامعين والمتغلبين ، وكان يحكمها ويقودها يومئذ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ؛ وكان قد وليها قبل ذلك بنحو عشرة أعوام باتفاق الجماعة عقب معارك داخلية طاحنة ، ولكن حكمه لم يتوج قط بالصبغة الشرعية ؛ ولم تستكن الأندلس نهائياً إلى حكمه بل كانت تتطلع دائماً إلى مصيرها وترجو أن تظفر بالاستقرار السياسي في ظل أمير شرعي . وهكذا فإن عبد الرحمن الأموي حينما سبر غور أحوال الجزيرة على يد بعض رسله وموالي أسرته ، آنس أملاً في العمل وفي النجاح ؛ ثم عبر إلى الجزيرة ، والتقى في أنصاره وعصبته بيوسف وقواته في « المسارة » على مقربة من قرطبة في أوائل ذي الحجة ١٣٧ هـ (٧٥٦ م) ؛ وكان النصر حليفه ، إذ هزم يوسف وحلفاؤه هزيمة شديدة ، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يوم الأضحى ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً

* * *

على أن يوم المسارة كان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته ؛ فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها وينتزع إمارتها لنفسه ؛ ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه ؛ وكان ثمة بينه وبين ملك الأندلس الحقيقي مراحل شاقة ؛ بيد أن هذا الفتى الذي شحذت المحنة والخطوب همه ، استقبل مهمته الفادحة بعزم مدهش ، وقضى بقية حكمه وحياته ثلاثة وثلاثين عاماً يغالب صعاباً لا نهاية لها . وكانت الأندلس خلال هذه الفترة كالبركان الثائر ، يضطرم كل يوم في ناحية ، فلا تكاد الثورة تخمد في ناحية منها حتى تضطرم في ناحية أخرى . وكان عبد الرحمن في خططه وأساليبه طوال هذه المعركة مثال الجرأة والصرامة والقسوة ، بيد أنها لم تكن شهوات طاغية ظامئ إلى الدم ، بل كانت أساليب عنف يمليها العنف والخطر الداهم . كان عبد الرحمن يعيش من يوم إلى يوم في غمر الخلاف والثورة والخيانة ، ولم يترك له الكفاح المضطرم المستمر فرصاً كثيرة لأعمال السلم ، بيد أنه خرج ظافراً من المعركة ، ظافراً

(١) أوردها المقري عن ابن حيان في نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣

باعادة الصرح الأموى الذى تهدم فى المشرق ؛ وتوطيد دعائم الملك الذى غلب ، وإنشاء أسرة أموية جديدة فى الغرب ، قدر لها أن تسير بالأندلس فى سبيل العظمة والفخار أحقابا

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تنشاه دائماً آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن ؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة ، وأنها اجتثت فى مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو فى ضحاياها ؛ ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه ، ويبكى مجد أسرته ، ويتحسر على فراق وطنه ، وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المعنوية مثل قوله فى التشوق إلى ربوع الشام :

أيهذا الركب الميمم أرضى أقرِ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى

وقوله وقد رأى فى الرصافة (١) نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنيّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمتنأى مثلى (٢)

تلك هى مأساة عبد الرحمن الداخل ؛ ونقول مأساة لأن الظفر الذى اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى . وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ؛ بيد أنه فى حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذى تثير محنته وآلامه فى النفس شجنا ، قبل أن تثير أعماله الحافلة فى النفس إعجاباً

محمد عبد الله عنان

(١) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل تشبها بجده هشام حيث أنشأ الرصافة بالشام

(٢) وفى نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٠ —

أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعت بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى . وحماسة ظمياء فى سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدى ، لا قدّر الله ولا سمح . وهل أملك زمامها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبى نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لئيما كل اللؤم فى هذه القضية — وما أبرّئ نفسى ، إن النفس لأمّارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى — فأنا أحب أن تُعافَى ليلى لأنفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها باخلاص ، فانه يعزّ علىّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تعطب مثل تلك الإنسانة وإن خلت منها يدى ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك حوادث سيطول عليها ندمى ، حين أتوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زعزع عروش السعادة فى كثير من البيوت

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعد للتضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيتين : عافيتها وسعادتى ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بنى ولا عُدوان ، والخلاصة أنى أريد أن يُنسى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلمنى كيف أسوس ليلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندى أنه كان (عبيطا) لا يعرف ما يأتى وما يدع . وكان مصيره أن يُحرم عطف ليلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !